مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
استاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية

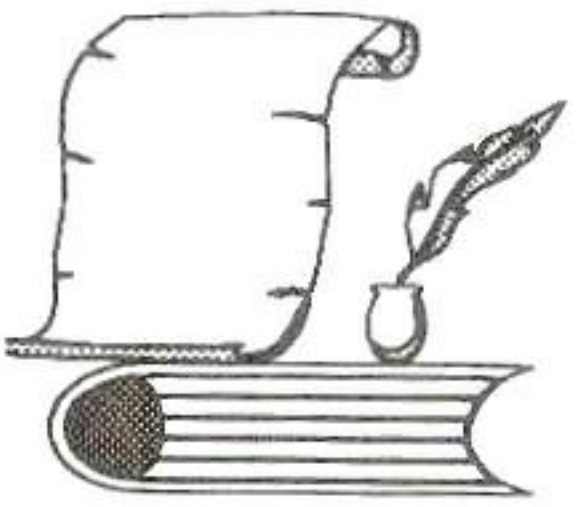

قضية الأخلاق فى النقد الأدبى الإسلامى

الأستاذ الدكتور
عبد المنعم أحمد يونس
أستاذ الأدب والنقد
كلية اللغة العربية بالمنوفية
جامعة الأزهر

١٤٢٠ هـ-١٩٩٩ م

حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السابع عشر (المجلد الأول)، مطبعة الحرمين ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

الحمد لله رب العالمين، علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد العرب والعجم أوتى الحكمة وفصل الخطاب.

وبعد..

يرصد هذا البحث العلاقة بين النقاد والشعراء رصداً يقوم على الانتقاء وتوظيف هذه الآراء فى توجيه الشعراء كى يلتزموا بالأخلاق فى شعرهم، ومدى التزام هؤلاء الشعراء بتوجيهات النقاد ويهتم البحث برصد جملة من تجاوزات الشعراء وموقف النقاد من هذه التجاوزات وأخيراً يحاول البحث التركيز على إفادة النقد الأدبى الإسلامى من وضع نظرية نقدية تقوم على أساس أخلاقى.

إن الشعر هو جوهر التراث الفكرى والثقافى للأمة العربية، إنه الفن الذى صدح به الشعراء تخليداً لمآثر أمتهم، وتمجيداً لعظمة أبطالهم، وحفزاً لهمم رجالهم وفرسانهم، إنه عنوان حضارة الأمة والنافذة التى ترى من خلالها نهضتها ورقيها، بأنغامه دافعوا عن مبادئهم، وبألحانه سجلوا انتصاراتهم وأيامهم، وإحياء هذا التراث ومحاولة عرضه بصورة لائقة رائقة إحياء لتراث أمة، وبعث لدور أجيال، ولا يمكن لأمة أن ترقى وتنهض، أو تساير تطورات الحاضر، وتطلعات المستقبل إلا إذا استلهمت من ماضيها دليل حاضرها، وأخذت من تراثها مشعلا يضئ لها طريق مستقبلها.

والشعر فن، والفن إبراز لوجدان الفنان وعواطفه وموقفه النفسى مما يحيط به من مناظر وحقائق، والمثال الذى يحتاجه الفنان، ويتخذ منه وسيلة لعمله الفنى ليس هو الصور المحسوسة، بل الآثار النفسية التى ترتسم على صفحات قلبه، وتتجاوب فى حنايا نفسه، فيحاول إظهارها طبقًا لما يوحى به الفن، وما تهدى إليه العبقرية، والقارئ أو السامع يدرك ذلك كله أو بعضه لا عن طريق الحقائق الماثلة، بل عن طريق إحساس الفنان، وأسلوبه فى الإبانة والإفصاح، وما يبتكر من وسائل للتعبير عن قيمتها فى رأيه(١).

لقد قام الشعر بهذا الدور متخذاً فى ذلك وسائله الفنية التى فتقها امرؤ القيس، وصدح بها الأعشى، وضرب على وترها حسان بن ثابت وأبو تمام والبحترى والمتنبى، وعزف على قيثارتها البارودى وشوقى وحافظ، واستجاب لألحانها الشابى والفيتورى والهمشرى، ألهبوا حماس الفدائية بأنغامهم، وأمتعوا بمعزوفاتهم أحاسيس الأمة، وخففوا بأغانيهم ما يعانيه الكادحون من حرمان.

وإذا كانت هناك بعض الفترات تخلى فيها الشعر عن دوره، أو ابتعد قليلا عن رسالته فلم يهدف إلى التفاعل مع قضايا مجتمعه، ولم يعبر عن عواطف منشئه، أو موقفه النفسى فلا يجب أن نتخذ من تلك الفترات معاول هدم ننقض بها على تراث أمتنا أو ننهال بها على ما حققه الأقدمون من شعر رادوا به أجيالا، وأمتعوا به عصورا.

ولا يجب على دعاة التجديد فى غمرة انتصاراتهم لما ابتكروه من أنظمة وما اخترعوه من أشكال أن يوجهوا سعار حملاتهم إلى الشعر القديم وأن يحاولوا رميه بالتخلف عن مواكبة الحضارة الحديثة، وعدم

مسايرة العصر؛ لأنهم بذلك يهدمون أنفسهم ويقوضون بنيانهم فالحاضر ابن الماضى، ولا خير فى طريف لا يتخذ من التليد منطلقا وردئا.

لقد وجهت إلى الشعر العربى كثير من الحملات الضارية فلم تستطع أن تهدم منه ركنا أو تفل له غربا إننا لا ننكر على هؤلاء دورهم فى التجديد الذى يرونه مناسبا لحاضرهم وإمكاناتهم لكننا ننكر عليهم حملتهم الشرسة على تراثنا الشعرى، لقد تنبه الجاحظ إلى أمثال هذه الحملات الضارية على الشعر، فلم يرد على من يقومون بها إلا بقوله: «هل يستطيع أحد أن يترجم الشعر»؟.

إن الشعر صعب ترجمته؛ لأنه فى هذه الحالة سيتحول إلى نثر، ولن يستطيع المترجم أن يترجمه إلا إذا أوتى فصاحة الشاعر وبلاغته ولن يؤدى الترجمان ما قاله الحكيم. يقول: «وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية، وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسنا وبعضها ما انتقص شيئا، ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن»، ثم يقول: «إن الترجمان لا يؤدى أبدا ما قاله الحكيم على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه وتعانق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدى الأمانة فيها(٢).

إن الشعراء القدامى تفردوا بأشياء وأتوا بمعان يعجز كثير من أترابهم أن يصلوا إليها، والأمثلة على ذلك كثيرة مشرقة شريطة أن يعاد فهم هذا التراث إلى مستوى من الفهم دون تعصب أو غض من قدر قائله، وعندئذ سنجد أن هذا التراث قد أدى دوره ومثل عصره، وصور بيئته ومصره، بل إن أشكاله الهندسية التى قام عليها هى سبب خلوده، ولعل موسيقى شعر لم تنتظم نسبها وتتكامل كما تكاملت وانتظمت فى

شعـرنا العربى منذ أقدم عصـوره إذ تتساوى الحـركات والسكنات فى كل بيت من القصيدة ملتقية دائما عنـد قافية توفق وحدة النغم وتتيح الفرصة للوقـوف عند أى بيت، وترديده على السـمع، ولا شك أن هذا التكامل والانتظام إنما جاء من تعانق تلحين الغناء وحركات الرقص، وضرباته مع شعرنا فى نشأته مما جعله يستـوفى النغم الطوال والقصار ومواقع النبرات والنقـرات، ويتمـسك بقرار القـافيـة الثابـت، حتى تتم للنغم وحـدته، وتتضح رناته فى كل بيت. وقد عبر حسان بن ثابت تعبيرا بينا عما استقر فى نفسـه، ونفس شعراء الجاهليـة والمخضرمين عن العلاقـة الوطيدة بين الشعر والغناء إذ قال:

تغن بالشـعـر إمـا كنت قـائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار(٣)

الأخلاق والشعر:

هذه مقـدمة أراها ضرورية للولوج إلى موضـوعنا الذى نحن بصدد الحـديث عنه، ذلك أن الشعـر العربـى القديم يمكن أن يصنف فى ضـوء الرؤيا النقدية إلى شعر اهتم بالأخلاق وأولاها عنايته، وشعر آخر انغمس فى الملذات، أو بالأحـرى سار وراء شهـوات النفس، ورغبـات الغريزة، وهذا الأمر يدعونا ـ أيضا ـ إلى أن نتتـبع آراء النقاد الذين اتجهوا بنقدهم إلى ذلك الفن يقومون معوجه، ويرصدون تجاوزاته.

ولابد لنا قبل العرض لآراء النقاد ـ قدامى ومـحدثين ـ حول الشعر الذى سلك طريق الأخلاق والشعر الذى تنكب الطريق من أن نقف قليلا عند قضية الالتزام فى الشعر وحديث النقاد عنها: لأن ذلك سيفسر لنا ما قام به النقاد من محاولات لتـقويم هذا الفن، حتى يؤدى الرسالة المنوطة

به، وقد عرض الدكتور محمد غنيمى هلال لـقضية الشعر فى كتابه النقد الأدبى الحـديث(٤)، فجعله شـعرا خالصا وشعرا لذات الشـعر، وشعرا ملتزما، فـالشعر الخالص يعنى توافر العناصر التى هى جـوهر الشعر فى صيـاغة التـجربة، وذلك أن جـوهر الشعـر ـ فى نظر أصـحاب الشـعر الخالص هى حقـيقة مسـتسرة عميـقة إيحائية لا سـبيل إلى التعبـير عنها بمدلول الكلمات، بل بعناصر الشعر الخالصة، وهذه العناصر الخالصة غير مقصورة على جرس الكلمات، ورنين القافيـة، وإيقاع التعابير، وموسيقا الوزن، فهذه كلها لا تصل إلى المنطقة العميقة التى يختمر فيها الإلهام.

وكأن أصـحاب هذه المدرسة، أو هذا المذهب يوقنون بأن الشـعر له وضع خاص فى فـهم مدلوله، فـهو لا يقتـصر على مجـموع التـراكيب والموسيـقى التى تعنى الوزن والقافيـة، أو ما يفاد من جـرس الكلمات، وإيقاع التعـابير، وإنما يأتى مدلوله من شىء كـامن فيه، أو كمـا عبر عنه بأنه مستـسر، أى شىء خفى ينم عن جوهر الشعـر ومعناه، ولكنه يعود فيقول: إنه إذا وضـعت الكلمات فى مواضعها الإيـحائية الحق وصدرت فى إيقاعها وموسـيقاها عن استجابة خالصة لأعـماق النفس، وعن حُمَيَّا فنية فإنها تشف عن أجواء روحية رحيبة.

ويرى أصحاب هذا المذهب أن الموضوع فى القصيدة الذى يفهم من العنوان والأفكار والمعـانى والتـتابع المنطقـى لهذه الأفكار، والتـدرج فى الدلالة على التجربة وتفصيل الوصف والمشـاعر المثارة إثارة مباشرة، تلك هى عناصر الشعر غـير الخالصة، ولكنهم يستدركون فـيقولون وإن كانت حين تنتظم فى العناصر الإيحائية تكتسب ذلك التـيار المستسر الذى تحدثنا عنه.

ولكن هل يمكن أن يغفل هؤلاء مضمون الشعر الذى يعد الركيزة الأهم فى بناء الشعر إن الذى ينعم بالنظر فى هذا المذهب يرى أنه لا يغفل المضمون ولكنه يعده شيئًا كامنًا يمكن أن يستشفه المتأمل فى بناء الشعر، والمتفهم لأسراره.

على أن هناك مذهبًا آخر يناهض مذهب الشعر الخالص وهو مذهب الشعر للشعر، وهو فرع ـ كما يرى الدكتور/ غنيمى هلال من مذهب الفن للفن، ومعنى هذا المذهب أنه يجرد الشعر من الالتزام بأنه رسالة تناط به؛ لأن ذلك شأن النثر، أما الشعر فلا يمكن أن يسير فى طريق النثر، ولكن بعض النقاد يسوون بين الشعر والنثر فى وجود خدمة الشعر لقضايا الوطن والإنسانية وهؤلاء يخالفون رأى القائلين بمذهب الفن للفن فى النثر والشعر على سواء.

وإذ كان دعاة الشعر للشعر يقصدون بدعوتهم هذه أن يكون الشعر بعيداً عن النفسية والجرى وراء الهوى والمطامع، فيمدح اليوم ما ذمه بالأمس ليظهر براعته فى اللغة، أو ليصل إلى أغراضه الخاصة به فإنهم قالوا إن الشاعر ليس له أن يسترسل فى خيالاته ومشاعره الفردية على حين وطنه من حوله أو طبقته الاجتماعية تجاهد فى سبيل آمال مشتركة(٥).

هذا الأمر يدعونا إلى أننا ونحن نعرض للنقد الأدبى الإسلامى وموقفه من قضية الأخلاق نحاول أن نضعه فى موضعه من قضية الالتزام فى الشعر؛ لأن الالتزام «فى نطاق الحرية الإسلامية لا يضع قيداً على فكر» ولا يعطل مسيرة أى جهد علمى، ولا يصادر إبداعاً فنيا، إنه تحرير للطاقات الإنسانية كى تؤدى دورها، وتحقق ذاتها ولا يحد من طبيعة التفاعل الإنسانى الخلاق(٦).

«إنه الالتزام الشامل الذى يعد الالتزام بمعناه الأدبى أو الفنى شريحة منه لا يمكن فصلها أو فصمها، ذلك الالتزام كما أوضحنا فن وفكر وسلوك وعلم. ومن هذا المنطلق يصبح للأدب رسالة شامخة وعطاء متجدد يحقق المتعة والفائدة معا، ويكسب رحيق السعادة والأمل فى الوجدان. «الالتزام الذى قدمه الله نعمة للبشر وتكريما لهم، وحماية لكرامتهم غير الإلزام الذى يساق إليه الناس سوقًا بالسياط والحديد والنار والذى يظلل آفاقه سحابات الرعب والوعيد والعذاب، ذلك أن الالتزام بمعناه الواسع ـ كما قلنا ـ هو الطاعة والإلزام هو الجحيم الذى صنعته حماقة الإنسان على الأرض(٧).

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى: «إننى أتصور الأدب كائنا حيا له قلب حنون وله ضمير واعٍ وله نفس مرهفة الحس وله عقيدة حازمة، وله هدف معين، يتألم بما يسبب الألم ويفرح بما يثير السرور، فإذا لم يكن الأدب كذلك فإنه أدب خشيب جامد، أدب ميت خامد أشبه بالحركات البهلوانية، والرياضات الجمبازية، فالأدب ليس أداة تسلية وإلهاء نفس، وإزجاء وقت، أو قتل وقت كما يقول بعض الأدباء، فحسب، إن الأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة، وللتأثير فى النفس الإنسانية(٨).

لعل هذا الذى قدمناه يمكن أن يكون تمهيدًا لما نحن بصدده من حديث عن الأخلاق فى النقد الأدبى الإسلامى، حقيقة أن تلك الآراء كانت بدائية تعتمد على الذوق، ولكنه الذوق الذى تربى تربية قوامها القرآن وسنة رسوله ﷺ اللذين جعلا المجتمع ينفر كثيرا من بعض العادات والتقاليد التى كانت سائدة فى مجتمع ما قبل الإسلام، بل إنهم

نظروا إلى ديوان مفاخرهم وسجل مآثرهم نظرة أخرى استقوها من تعاليم الإسلام، ومن أسرار القرآن الكريم.

نعم إن المتذوقين للشعر فى عصر صدر الإسلام لم يكتفوا أن تكون أحكامهم منصبة على المعاصرين لهم من الشعراء، بل وجهوا أحكامهم ونقداتهم المعتمدة على الذوق الأخلاقى إلى شعراء الجاهلية، فرأينا رسول الله ﷺ يقول عن امرئ القيس: «إنه أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار يعنى شعراء الجاهلية والمشركين». قال دعبل بن على الخزاعى: «ولا يقود قومًا إلا أميرهم»(٩).

لقد وجه رسول الله ﷺ نقده إلى امرئ القيس من منظور أخلاقى إسلامى فامرؤ القيس أشعر الشعراء، لأنه قيد الأوابد، ووقف واستوقف، وبكى الديار والأطلال ورسم للشعراء بعده نظام القصيدة العربية، ولكنه كان يتعهر فى شعره، ذكر أشياء ما كان يحق له أن يذكرها، حتى فى المجتمع الجاهلى الذى كان يحث على رعاية حق الجوار وعدم الاعتداء على الحرمات: حتى إنهم أعجبوا بقول القائل:

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مثواها

ويقول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المطعم

لكن امرأ القيس لم يصدر فى شعره من هذا المنطلق: لذلك وضع فى مقدمة شعراء الرذيلة يتقدمهم إلى النار.

إذا كان الشعر العربى فى العصر الجاهلى ـ كما يقول عنه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ علم قوم لم يكن لهم علم أصح

منـه[١٠]، فإن العرب بعد الإسـلام لم يهملوا هذا العلم، ولم ينفضوا عنه، وإنما تدارسوه فـيما بينهم، وكـانوا يتذاكرونه دائمـا فى صورة تلك اللمحات النقدية التى كان أعلام النقد فى عـصر صدر الإسلام يوجهونها إلى الشـعر الجاهلى، أو إلـى شعرائه، وكـان هؤلاء النقاد يـصدرون فى نقـدهم من منظور أخلاقى، فـفاضلوا بين الشـعراء فى ضـوء هذه المثل الأخلاقية التى أكسبهم إياها دينهم الحنيف.

والمفاضلة بين الشعراء تأتى أحـيانا باستخدام صيغة أشـعر الشعراء، وتأتى حينا بالنص على المفاضلة بين أسمـاء بعينها، وكلا المنهجين وصل إلينا فى تلك الروايات التى دونها أعلام النقد فى عصر التدوين.

١ ـ فقد ذكر ابن سلام الجمـحى قول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسيدنا عـبد الله بن عباس رضى الله عنهـما: «أنشدنى لأشعـر شعرائكم؟ قلت من هـو يا أمير المؤمنين؟ قـال: زهير. قلت: ولم كان كـذلك؟ قال: كان لا يـعاظل بين الكلام، ولا يتتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه»[١١].

ويعقب ابن سلام على كلام سيدنا عمر بن الخطاب بقوله: قال أهل النظر: كان زهير أحصـفهم شعراً وأبعدهم من سخف، وأجمـعهم لكثير من المعانى فى قليل من المنطق، وأشدهم مبالغة فى المدح. أما ابن رشيق القيروانـى فإنه يعقب على كلام ابن سـلام فيقول: وإذا قـوبل آخر كلام عمر بآخر هذا الكلام ـ تناقض قـول المؤلف ـ يعنى ابن سلام؛ لأن عمر إنما وصفه بالحـذق فى صناعته، والصدق فى منطقـه؛ لأنه لا يحسن فى صناعة الشعر أن يعطى الرجل فوق حـقه من المدح لئلا يخرج الأمر إلى التنقص والإزراء كما أخذ ذلك على أبى الطيب وغيره[١٢].

ونحن إذا نظرنا فى نقد سيدنا عمر لزهيـر وجدناه يعتمد على فهم جيد للشعر ورسالته فهو ذو بصـر شديد بشعر زهير وحيائه، وخاصة فى مدائحه التى قالها فى هرم بن سنان، لقد كـان زهير يختار لشعره ألفاظًا جيدة بعيدة عن التكلف والغرابة، حتى يجعل سامعيه يتأثرون بمعانيه تأثرًا سريعًا، وقد كان زهير كما يقـول عنه ابن سلام أجمع الشعراء لكثير من المعانى فى قليل من المنطق، وأبعـد الشعراء من سخف الألفـاظ، وسيدنا عمر يفضل زهيراً ـ أيضًا ـ لأنه صادق فى شعره، فلا يبالغ فى مدائحه، ولا يستجلب صفات للممدوح لا يستحقـها، وقد استحسن سيدنا عمر ـ كمـا يقول ابن رشيق ـ الصـدق لذاته، ولما فيـه من مكارم الأخلاق، ثم يقول ابن رشيـق: «ويشهد لقول عمـر ـ رضى الله عنه ـ فى زهير أنه لا يمدح الرجل إلا بما فيـه استحسانـا لصدقه ما جاء بـه الأثر أن رجلا قال لزهير إنى سمعتك تقول لهرم:

ولأنت أشـجع من أسـامـة إذ دعـيت نزال ولج فى الذعـر

وأنت لا تكذب فى شعرك، فكيف جعلته أشجع من الأسد؟ فقال: إنى رأيته فتح مدينة وحده، وما رأيت أسداً فتحها قط!! فقد خرج لنفسه طريقًا إلى الصدق.

٢ ـ أثر عن سـيـدنا عمـر بن الخطاب ـ أيضًـا ـ أنه فـضل النابغـة الذبيانى على شعـراء غطفان مستـخدما كلمة أشعـر شعرائكم، فقـد ذكر أبو الفرج الأصـفهانى فى الأغـانى قصة الشـعبى مع الأخطل عندما اجتـمع فى حضرة عبـد الملك بن مروان، وقول عبـد الملك للشـعبى ما تقـول فى النابغـة؟ قال: قلت يا أمـير المؤمنين: لقـد فـضله عـمر بن الخطـاب فى غيـر مـوطن على

الشعراء أجمعين وقف ببابه وفد غطفـان فقال: يا معشر غطفان أى شعرائكم الذى يقول:

«حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس من وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عنى وشاية ... لمبلغك الواشى أغش أكذب

ولست بمستبق اخًا لا تلمه ... على شعث أى الرجال المذهب»

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين قال: فأيكم الذى يقول:

«فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

خطاطيف حجن فى حبال متينة ... تمد بها أيد إليك نوازع»

قالوا: النابغة.

قال: فأيكم الذى يقول:

إلى ابن محرق أعملت نفسى ... وراحلتى وقد هدت العيون

أتيتك عاريا خلقا ثيابى ... على خوف تظن بى الظنون

فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون»

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: هذا أشعر شعرائكم(١٣).

فهذا رأى آخر لسيدنا عمر بن الخطاب يفضل فيه النابغة الذبيانى على شعراء غطفان تفضيلا معتمدا على الذوق الأخلاقى؛ لأن النماذج التى ذكرها سيدنا عمر للنابغة تدل على سلوكيات أخلاقية ومبادئ يجب على كل شخص أن يتحلى بها.

٣ ـ سأل سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه الحطيئة عن أشعر الناس فقال الذى يقول:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

وليس الذى يقول:

ولست بمستبق اخا لا تلمه على شعث اى الرجال المهذب

بدونه ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جرو لا. والله لولا الجشع لكنت أشعر الماضين، وأما الباقون فلا شك أنى أشعرهم. قال ابن عباس: كذلك أنت يا أبا مليكة(١٤).

وقد يقال إن الحطيئة قدم زهيرا لأنه أستاذه، فقد كان الحطيئة يروى شعر زهير وهما يمتحان من بئر واحدة فهما من مدرسة عبيد الشعر. لكن الحطيئة يعلل لنقده تعليلا يجعلنا نقف على منهج النقد فى هذه الفترة الذى يعتمد على الذوق الأخلاقى ذلك أن النابغة أخره عن زهير تزلفه للحكام، وضراعته للنعمان بن المنذر وتكسبه بشعره، أما زهير فعلى الرغم من أنه كان يمدح هرم بن سنان إلا أنه لم يكن يمدحه رغبة فى عطاء، أو رهبة من بطش، ولكنه مدحه لوجود صفات الرجل الكريم فى نظر زهير، فقد كان هرم كما يقولون شجاعًا جوادًا حليمًا، وكان زهير يحب فيه هذه الصفات فمدحه من أجلها، أما النابغة فإنه شاعر تكسب بشعره. فأضفى على الشعر لونا من التزلف للحكام، وعندما توعده النعمان بن المنذر أفرغ طاقته فى استدرار عطفه، وطلب العفو منه فيما سمى بشعر الاعتذار، ولذلك فإنهم يقولون أشعر الشعراء النابغة إذا رهب، وهذا اللون من الشعر لا يمثل الشعر الصادق، أو لا يقدم لنا النموذج والمثل أو ما نسميه بالشعر الأصيل.

٤ ـ أما الشعراء المعاصرون فإن الحكم عليهم لم يكن يصدر من شخص واحد، بل يشترك فى الحكم عليه آخرون أو يقوم بذلك المتخصصون من الشعراء كما حدث مع الحطيئة عندما هجا الزبرقان بن بدر بقوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فقد قال سيدنا عمر بن الخطاب لحسان بن ثابت ما تقول؟ أهجاء؟ وسيدنا عمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان، ولكنه أراد الحجة على الحطيئة قال: ذرق عليه، فألقاه فى حفرة اتخذها محبسًا(١٥).

لكن الحطيئة فى نفس القصيدة يقدم دليل خبثه وعدم وفائه أو شرهه، فيحتج على تفضيله بغيض بن عامر بقوله:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

ولو أن الحطيئة آمن بقوله هذا لما أقدم على ما أقدم عليه من ذم صحابى من صحابة رسول الله ﷺ، ولكنه الشعر، أو قل الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون.

وقيل إن سيدنا عمر بن الخطاب لم يخرجه من سجنه إلا بعد أن أرسل الحطيئة يعتذر ويقول لسيدنا عمر مستعطفا:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فأخرجه سيدنا عمر من السجن، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم وتوعده بأنه لو عاد إلى الهجاء لقطع لسانه فلم يعد إلى الهجاء حتى انتقل عمر إلى ربه.

٥ ـ إذا كان سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قد فعل ذلك مع الحطيئة، فإنه حذر سحيم عبد بنى الحسحاس عندما رآه يتغزل بنساء سيده يقول له: ويحك إنك لمقتول وقد قتل سحيم بذلك الغزل، وسحيم هذا هو الذى قال فى بداية قصيدة له:

عميرة ودع إن نجهزت غازيا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال له سيدنا عمر لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك، فقال: ما سعرت بالسين، وهو يقصد ما شعرت بهذا المعنى فقلت ما قلت.

والذى يتدبر نقد سيدنا عمر لسحيم فى قوله: لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك يدرك أن النقد كان يقوم على مقياس أخلاقى، فالإسلام نقل الأمة العربية نقلة حضارية واجتماعية لا ينكرها ذو بصر فلابد إذن من أن يكون الإسلام مقدما على كل المؤثرات الأخرى التى تنهى الإنسان عن الوقوع تحت حبائل الشيطان.

٦ ـ ورسول الله ﷺ الذى قال عن امرئ القيس ما قال كان يرق للمعنى الجميل وللمثل السائر، فقد قيل إنه لما أمر بقتل النضر ابن الحارث بلغه أن أخت النضر أو ابنته قالت:

يا راكبا إن الأثيل مظنة ما إن تزال بها النجائب تخفق

منى إليك وعبرة مسفوحة جاءت بواكفها وأخرى تخفق

هل يسمعنى النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق

أمحمد يا خير ضنء كريمة فى قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

أو كنت قابل فدية فلينفقن | بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة | وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه | لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية متعباً | رسف المقيد وهو عان موثق

يقول ابن هشام: «فيقال والله أعلم إن رسول الله ﷺ - لما سمع هذا الشعر قال: لو بلغنى هذا قبل مقتله لمننت عليه»(١٦).

وعندما وفد عليه النابغة الجعدى على رأس وفد من قومه فى العام التاسع للهجرة وأنشده قصيدته الرائية:

بلغنا السما مجدنا وجدودنا | إنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال له النبى ﷺ: أين المظهر يا أبا ليلى؟ قال: الجنة. قال: أجل إن شاء الله تعالى، وعندما قال النابغة:

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له | بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له | حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال له رسول الله ﷺ: «لا يفضض الله فاك مرتين».

لماذا نذهب بعيداً وقد روت لنا كتب السيرة موقف رسول الله ﷺ من كعب بن زهير عندما أهدر دمه وقدم عليه يعتذر برائعته المشهورة «بانت سعاد» ألم يؤمنه رسول الله ﷺ بل إنه روى لما لم يجد شيئا يجيزه به غير بردته أعطاه إياها؟ ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يطربون للكلمة الموحية والمعنى الجميل الذى ينزع إليه الشعراء؛ لأن ذلك فى نظرهم امتداد لرسالة القرآن الكريم، وحديث رسول الله ﷺ.

إذا كنا قد وقـفنا مع تلك النقدات المبنيـة علي الذوق الأخلاقى فى عصر صدر الإسلام، فإن الواجب يقتضينا أن نقف مع تلك النقدات التى وجهها الناقدون اللاحقون للشعراء الذين تنكبوا الطريق، حتى يثنوهم عن شططهم، ويعيدون إلى رسالة الشعر المبنيـة على الأخلاق ومسايرة نهضة المجتمع، والوقوف مع قـضاياه، ولكننا نلقى الضوء فى سطور قليلة على المقولة المنسـوبة إلى الأصمعى، والتى تصف الشعـر بأنه نكد بابه الشر، فإذا دخل باب الخيـر ضعف ولان. وقد اتخذ من حـسان بن ثابت دليلا على ذلك ـ إن هذه المقـولة ـ كمـا أشار إلى ذلك كـثيـر من النقاد غـير مسلمة، بل لعلها مُتَقَوَّلة عليه؛ لأن الذى يقرأ المفضليات والأصمعيات ـ كمـا يقول الدكـتور شوقـى ضيف سيـجد المفـضل الضبى والأصـمعى يحتفظان فى كتابيهما بغير مطولة لشعراء إسلاميين.

ومعنى ذلك أن الأصـمعى الذى ذكـر كثيـرا من شعر الشـعراء فى صدر الإسـلام لا يمكنه أن يقول هذا الكلام ـ لأنه بذلك يناقض نفـسه، ويقلل من قيمـة كتابه «إن من يرجع إلى هذه المصادر يستقـر فى نفسه أن الشـر ظل مـزدهراً فى صدر الإسـلام، وليس بصـحـيح أنه توقف، أو ضعف، كما ظن ذلك ابن خلدون، وتابعه فـيه بعض المعاصرين إذ يقول فى مقدمته «انصرف العرب عن الشعر فى أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا على ذلك وسكتـوا عن الخوض فى النظم والنثر زمـانا، ثم استـقر على ذلك وأونس الرشد من الملة، ولم ينزل الوحى فى تحـريم الشعر وخطره، وسمعه النبى ﷺ ـ وأثاب عليه ـ فرجعوا حينئذ إلى دَيْدَنَهُمْ منه».

وكـأنه يجعل مـدة توقفـهم عن الشـعر مـدة نزول الوحى لعصـر الرسـول، وواضح أن هذا لا يصـدق على المشـركين؛ لأنهم لم يشـغلوا بالدعوة، ومعروف أن جـمهرة القبائل العربيـة إنما دخل فى الإسلام بعد فتح مكة فى العـام الثامن من الهجـرة وإذن فانصرافهم عن الشـعر ـ إن صح ـ إنما كـان لمدة عـامين أى إلى أن انتـقل الرسـول ﷺ إلى الرفـيق الأعلى. وهو نفسه ينقض ما قـاله فى أول كلامه بما قاله فى آخره من أن الرسول ﷺ سمع الشـعر وأثاب عليه ونحن نعرف أنه كـان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ويردون على شعراء مكة وغيرهم من خصـومهم ذائدين مدافـعين، وهم حسان بن ثابت، وكـعب بن مالك، وعبد الله بن رواحـة وحتى فى العامين الأخيرين من حيـاته عامى الوفود كـان كل وفد يقـدم ومعـه خطبـاؤه وشعـراؤه بمجـرد أن يمثلوا بين يديه يتحدث خطبـاؤهم، وينشد شعراؤهم، ويرد عليـهم خطباء الرسول ﷺ وشعراؤه. ومعنى ذلك أن الشعر استمر يؤدى رسالته التى كان يؤديها فى العصر الجاهلى، ولكن الشعراء فى عصر صدر الإسلام كان لابد لهم من أن ينظروا إلى منهج القرآن الكريم إن أرادوا قولا، أو يسلكوا منهجًا قريبًا منه إن أرادوا لمستـمعيهم أن يرهفـوا لهم الآذان، وأن يكونوا صادقين مع أنفسهم إن هم حاولوا معالجة القضايا التى تهم مجتمعهم، وبيئتهم ويمكن أن نستعير موازين النقد الحـديث لنقرر أنه لابد لهؤلاء من واقعية الأداء، وصدق التـعبيـر، فتحـرى الصدق فى القـول، والواقعيـة التى لا تجعل الشاعر يهوم فى خيالات مجنحة لا تمت إلى مجتمعه بصلة كل ذلك كان على شـعراء الإسـلام أن يسلكوه وقد صنعـوه فعـلا لأنهم تأثروا بمنهج القرآن الكريم حتى قال حسان بن ثابت:

إن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وإنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كذبا وإن صدقا

من هذا المنطلق وجدنا النقاد فى العصر الإسلامى يتجهون إلى ذلك الفن يقومون معوجه ويعيدون الشعراء إلى الجادة إن هم تنكبوا الطريق، أو حاولوا استغلال مواهبهم فى الاعتداء على عقيدة الأمة أو سلوكياتها المرعية، بل وجدنا النقاد حتى فى العصور المتأخرة ينحون بالائمة على أولئك الذين غمرتهم المادة وسيطرت عليهم الشهوة فأطلقوا لشيطان الشعر العنان، وجلسوا يهيمون بمن يحبون سواء كان ذلك منهم واقعًا أم تخيلاً، فقد أثرى بعض الشعراء شعر الغزل بقصائد عكفوا على نظمها، لتغنى بألحان أولئك المغنين الذين وفدوا على بيئة الحجاز، ورأوا فيها رواجا لفنهم، وتشجيعًا لألحانهم.

ومن عجب أننا نجد المتناقضات تملأ بيئة مكة والمدينة، أو قل بيئة الحجاز بعامة. ففى الوقت الذى عكف فيه علماء مكة والمدينة على دراسة القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ - فقد نشأ فى هذه الحقبة حبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنه، والعالم الزاهد الورع سعيد بن المسيب، وغيرهما من علماء التفسير والحديث الذين تركوا لنا نتاجًا رائعًا فى هذين المجالين كانت محصلته تلك الآراء المذهبية التى تمثلت فى فقه إمامين عظيمين من أئمة التشريع الإسلامى - إمام أهل المدينة مالك بن أنس، وإمام مكة ومصر من بعد محمد بن إدريس الشافعى - فى هذا الوقت الذى شهد تلك النهضة العلمية والتعليمية نجد اللهو يعم قطاعا آخر من أهل الحجاز، أو قل انصرف بعض شبابه إلى اللهو، وانغمسوا فى إرضاء رغباتهم، أو قل إنهم غرقوا فيه حتى آذانهم، أو كما يقولون شربوا حتى الثمالة.

وإذا كانت آراء المحدثين قد تناقضت فى هذا المجال، أو قد اضطربت فى تحليل هذه الظاهرة وفى تعليل هذا الاتجاه المادى الذى سيطر على قطاع عريض من شباب الحجاز فإننا لا نميل إلى رأى من يرى أن الأمويين هم الذين وجهوا الشباب فى تلك البيئة هذه الوجهة حتى يبعدوهم عن سياسة الدولة، ولو كان الأمر كذلك لما وجدنا عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة ـ يأمر بمن يأتيه عمر بن أبى ربيعة والأحوص موثقين، فيعاتبهما، وينفيهما، وقيل إن عمر بن أبى ربيعة عاهده على ألا يعود إلى مثل شعره أما الأحوص فقد نفاه إلى دهلك بالبحر الأحمر وحدث أن حج سليمان بن عبد الملك فأرسل إلى عمر بن أبى ربيعة وسأله عن أبيات قالها، وأخرج إلى الطائف حتى قضى الناس حجهم.

لقد ولد شعر ابن أبى ربيعة وأضرابه فى شعراء الغزل جوا من النقد ينهض بهذا اللون من الشعر، ويجعله يؤدى دوره فى التعبير عن العواطف الإنسانية، والأحاسيس البشرية ولم يكن هذا النقد قاصراً على فئة معينة من النقاد، أو المشتغلين بالدراسات الأدبية، وإنما كان الجميع يخوض فى هذا المجال، وكانت هناك مجالس أدبية تعقد، ويتذاكر فيها الناس ذلك النتاج الذى تولد عن قرائح أولئك الشعراء. ولا نريد هنا أن نعرض لآراء أولئك النقاد فى هذا الشعر، ولكننا هنا نسوق وجهة نظر طائفة من النقاد وقفوا معارضين لذلك اللون من الغزل الذى وجدوا فيه دعوة للرذيلة واستباحة لحرمات المسلمين، حتى إنهم ربطوا بين ميلاد عمر ابن أبىْ ربيعة، ومقتل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ فقالوا عنه ولد فى الليلة التى استشهد فيها الخليفة العادل عمر بن الخطاب، وفرق

كبير بين عمر الراحل، وعمر الوليد، وقد روى الأغانى عن الحسن البصرى أنه قال: «ولد عمر بن أبى ربيعة ليلة قتل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه، فأى حق رفع، وأى باطل وضع».

والقارئ لهذه العبارة يدرك موقف العلماء من هذا الغزل وكأنهم أرادوا وسم هذا الشعر بميسم المروق من الفضيلة، والانغماس فى الرذيلة، ويروى الأغانى عن هشام بن عروة قوله: «لا تروا فتيانكم شعر عمر بن أبى ربيعة لا يتورطن فى الزنا تورطا وأنشد:

لقد أرسلت جاريتى وقلت لها خذى حذرك

وقولى فى ملاطفة زينب نولى عمرك

ولقد روى الأغانى أيضًا عن أبى المنوم الأنصارى قوله: «ما عصى الله بشىء كما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة».

وسواء أقال عمر بن أبى ربيعة هذا الشعر وهو يصدر فيه عن واقع أمره، أم قاله عن خيال فعل به الأفاعيل فإن هذا الشعر وجد معارضة من أولئك النقاد الذين يحاولون السمو برسالة الشعر، ويجعلونه سلاحًا يقاومون به الشر، ويدفعون به الناس إلى الخير وكأنهم يوظفونه إلى غرس الأخلاق الفاضلة بين الأجيال حتى يرتقى ذوقها، وتتسامى إلى مرضاة ربها.

ولم يكن شعر الغزل هو الذى وجد معارضة، فحسب بل إن الشعر الذى كان يعرض للعقيدة ويدعو إلى التندر بها، أو يستخدم المبالغات الشعرية فى وصف الخلفاء ومدحهم، وكذلك شعر الهجاء الذى كان يعمل على إثارة العصبيات بين القبائل وهو أمر مرفوض دينًا وجد نفس

المعارضة، ولعلنا نحاول أن نسوق بعض هذه التجاوزات ووقوف النقاد منها فى عجالة سريعة.

١ ـ فى العصر الأموى ظهر لون من الشعر عرف فيما بعد بشعر النقائض وكان فرسانه ثلاثة من فحول الشعراء هم: الفرزدق وجرير والأخطل، وكان هؤلاء الشعراء يعتمدون فى هجائهم على المبالغات التى اتخذوا منها سبيلاً إلى إسكات خصومهم، ولعل كثيراً من متذوقى الشعر يعلمون أن النقائض أحيت فن الهجاء القبلى، وأذكت نار العصبية التى حرمها الإسلام. فليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية، ولذلك لا نتعجب عندما نعلم أن القباع والى ابن الزبير على البصرة أمر بهدم بيتى الفرزدق وجرير؛ لأنهما يثيران الضغائن بين القبائل، فأساس النقائض كان يقوم على العصبيات القبلية. وأن هذه العصبيات اختلطت فى العصر الأموى بالسياسة، وهيأ ذلك النقيضة؛ لأن تخوض فى مدح الخلفاء بحيث لم تصبح فخراً وهجاء فحسب بل تحتوى كذلك مديحًا».

ونحن لا نتعجب إذ رأينا خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز رحمه الله يحاول كسر حدة هذه الموجة فيقف الشعراء ببابه شهوراً وهو يدفعهم دفعًا، ويقول مالى والشعراء، ولعله أراد بذلك أن يعلم أولئك الشعراء الذين انغمسوا فى شعر النقائض، أو الذين أصبحوا أبواقا تهتف باسم الحاكم لتنال من رفدهم أنه لا مكان لهذا الشعر الذى يذكى نار العصبية عنده، وأن على هؤلاء الشعراء أن يعودوا إلى رشدهم وأن يراقبوا الله

سبحانه وتعـالى فى أمتهم، وقيل إن جريرا دخل عليـه بعد إلحاح فأعطاه بعض المال بعد مـحاورة معـه، فخرج على الواقـفين بباب الخلافـة قائلاً جئتكم من عند أمير يعطى الفقراء، ويمنع الشعراء».

٢ ـ ليس بضرورى أن يقف النقاد فى وجـه الشعراء يرشدونهم إلى أن يتحدثوا عن الإسلام وعن السلوكيات التى غرسها فى نفوس أبنائه فطبعتهم بطابع الأخلاق الإسلامية الراقية، فهذا أمر فطرى كامن فى نفس كل إنسـان ـ ولكن الأمر الضرورى أن يتـصدى النقاد إلى تلك اللمزات اتى يتخذها الشعراء مجالاً للسخرية من الإنسان ومن عـقيـدته، إن ذلك أمرا رأى النقاد أن الـقائمين به يجترئون على الإسـلام، وعلى العقيدة التى بذل المسلمون فـيها النفس والنفيس حتى استـقامت على عودها ودخل الناس بعدها فى دين الله أفـواجا. وإذا كان العـصر الأمـوى قد شهـر تلك العصبيـة التى أثارها النقاد فى نقائضهم فإن العصـر العباسى قد شهد ألوانا أخرى من جرأة الشعراء على العقيدة واتخاذها ذريعة للسـخرية. فقـد كانت الزندقـة فى العصـر العبـاسى فاشـية، وبخاصة بين الموالى، وكانت تطلق على كل ماجن خليع مستهتر بالدين، كما تطلق على كل كافـر ملحد لا يؤمن باليوم الآخر، وما وراءه من ثواب وعقاب، وزندقة أبى نواس كانت تجمع بين هذا وذاك فهو من عصبة المجـان التى وأدت الفضيلة واستخفت بالدين، كـمـا أنه منكر للبـعث والنشـور ولا يؤمن إلا بما تراه العينان.

وكان أبو نواس أجرأ الشعراء فى استخدام المصطلحات العقدية استخدامًا لا يتفق مع دلالتها الدينية، وأكثرهم تصريحا لفساد عقيدته، وقد أنكر كثير من الرواة ومتذوقى الشعر والنقاد جرأته وتصريحه بالكفر، وأسقط بعضهم شعره وشاعريته بسببها، فيذكر صاحب الموشح أن مسلم ابن الوليد كان يسقط شاعرية أبى نواس بسبب جرأته على الله سبحانه وتعالى وقد يحيل فى كثير مما يقول، ويتخطى صفة المخلوق إلى صفة الخالق عز وجل.

شعر أبى نواس الذى يسخر فيه من القضاء والقدر والبعث والحساب كثير فهو يقول مثلا:

يا ناظرا فى الدين ما الأمر ... لا قدر صح ولا جبر

ما صح عندى من جميع الذى ... يذكر إلا الموت والقبر

فاشرب على الدهر وايامه ... فإنما يهلكنا الدهر

ويلقاه العتابى يومًا فيقول له: يا أبا على أما خفت الله حيث تقول:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

وقد كتب بن الأنبارى رسالة إلى عبد الله بن المعتز يهاجم فيها شعر أبى نواس لجرأته المفرطة وينكر على عبد الله بن المعتز أن ينشد شعر أبى نواس فى حضرته لما فيه من إساءة للعقيدة الدينية، ولم يقف أمر أبى نواس عند ذلك بل إنه يقال أنه أول من تغزل بالغلمان، أو قل إنه أول من توسع فى هذا اللون من الشعر، ورجل هذا شأنه خمر وغلمان، وفساد عقيدة لابد أن يقف النقاد منه موقفًا متشددًا، وكأن النقاد نظروا إلى قضية الأخلاق فى الشعر وأنه لابد أن يصدر من منطلق أخلاقى

يخدم قضـايا المجتمع ومقـدساته وإلا فإن الشعـر لا يصلح لأن يقال إنه شعر: إن الذى يتتبع تعريفات النقـاد للشعر يرى أن كثيراً منهم يقول عنه إنه التعبـير عن الحق والقوة والجمال عن طريق التصـور أو الخيال، بل إن بعض الأدباء يقول عنه: الشعر شعور لطيف أحسته الأرواح قبل الأشباح.

«الشعـر كالفن والروح والخلود والجـمال والفـتنة والسحـر والعقل والفكرة، وما وراء الطبيعة والذوق معان شائعة عن عقولنا وأنفسنا تفهمها فهمًا، بل إن منا من قد يحسون أثر الشعـر فى جسومهم، فيهتز لإنشاده أو سماعه منهم عضو أو أعضـاء عن غير وعى، وتختلج عيون، وتخفق قلوب، وقد نكون أنا وأنت من هؤلاء».

لكن أى لون مـن هـذا هو الذى يصـنع بنا ذلك ؟ إنه الـلون الذى يعرض فكرة، ويعالج قـضية، ويسمو بذوق الإنسان وعواطفـه؛ ليجعله يحلق فى ملكوت الله الفـسيح، ويسـبح فى خيـال مجنح، فيـخلق منه إنسـانا محـبا للحـق والخـير والجـمال، وهذا لا يتـأتى من أولئك الذين سخروا شعرهم للرذيلة، أو للسـخرية من الثوابت التى لا يستطيع عقل، أو عاطفة تقبلها. إن الشعر هو المرآة التـى تنعكس عليها الحياة الإنسانية، ليرى فيها الإنسان كل ما يتطلع إليه من سعادة الحياة الدنيا والآخرة.

فكل شاعر لا يحـقق ذلك الهدف يمكن أن يتوجه نقـد النقاد الذين أحسوا ما للشعر من قيمة جمـالية وأخلاقية إليه، ولذلك فقد توجه النقد أيضًا إلى المتنبى لجرأته أيضًا ومبالغاتـه التى تتكئ على مفهومات عقدية، فقد عقب ابن وكيع التنيسى على أبيات المتنبى التى يقول فيها:

يا أيهـا الملك المصـفى جـوهراً من ذات ذى الملكوت اسمى من سما

نور تظاهر فـيك لا هوتيـه فـتكاد تعلم علم مـا لم يعلمـا

بقوله: هذا مـدح متجاوز وفـيه قلة ورع، وترك للتحـفظ أنه جعل الممدوح ذات البارى وذكر أنه حل فيه نور إلهى.

قد عرض الأستاذ عباس حسـن لهذا الجانب من شعر المتنبى فحمله على الاستهتار وعدم قوة الإيمان، وأورد له بعض الأبيات فى المدح كقوله فى مدح سيف الدولة:

إن كـان مـثلك كـان أو هو كـائن فـبـرئت حـينئـذ من الإسـلام

وقوله فى مدح بدر بن عماد:

لو كـان علمك بالإله مـقـسـمـا فى الناس مـا بعث الإله رسـولا

أو كـان لفظك فـيـهـمـومـا أنزل القـرآن والتـوراة والإنجـيـلا

ثم قال معقبًا:

وإنى أميل إلى القول بأن المتنبى ليس ملحداً ولا زنديقًا، وذلك لأن شـعره خـالٍ مما يصلح دليـلاً قاطـعًا، أو شـبه قـاطع على هذا الاتهـام القاسى، أما الأبيات الـسالفة وأشباهها من المبالغـات وإدعاؤه النبوة التى رجع عنها ـ فنوع من الجرأة والاستهانة التى عرف بها المتنبى للوصول إلى غاياته لا يبالى فى ذلك بما ينفرط به لسانه، وهذا عيب لا مرية فيه.

وإذا كان الأسـتاذ محـمود شـاكر قد نفى نبـوته فى كتابـه القيكم «المتنبى» السفر الأول والثانى فإن جرأته فى مدائحه قد وقف النقاد جميعًا حيالها رافضين لها منكرين لكل ما جاء بها.

والذى يتتبع مـا قاله النقاد حول قـضية الأخلاق فى شعـر الشعراء يرى أنهم ينحـون باللائمة على أولئك الذين يتـجاوزن فى شـعرهم. إن

للإسلام حقه من الإجلال الذى لا يسـوغ الإخلال به قولاً وفعلاً، نظمًا ونثرًا.

إن كثـيراً من النقاد من أمـثال عبـد القاهر الجرجـانى، وابن شرف القيـروانى، والثعالبى، وابن بسـام يعلنون أن الشعر ينـبغى أن ينطلق من منطلق أخلاقى يدعو إلى الخير والحق والجمال يقاوم الرذيلة، ويحث على مكارم الأخلاق.

فهل يمكنـنا أن ننطلق من منطلق أسلافنا فنضع نظريـة نقدية للأدب الإسلامـى شعـره ونثره تعـتمـد على الأخلاق، وتقـيم بناء الأدب على أساس من توجيهات النقاد القدامى فى العصور المختلفة؟

لقد رأينا كثـيراً من النظريات النقدية الغربيـة تحاول أن تضع المناهج للمنتسبـين إليها، والمبدعين الذين ينضوون تحت لـوائها، والنقاد والأدباء الإسلاميون يجب عليـهم أن يضعوا لأنفسهم منهجًا يسـيرون عليه، لقد كثر حديثنا عن منهج الأدب الإسلامى، بل وقطعنا كثيراً من الوقت حول تعـريف الأدب الإسلامى، أو مـا عبـر عنه بمصطلح الأدب الإسـلامى، واليوم ينبـغى للنقاد والمبدعين أن يوظفوا جـهدهم ووقتهم لإقـامة نظرية نقديـة إسلاميـة تهتم بوضـع الصيغـة الملائمة لما تـفرزه قرائح المـبدعين الإسلاميين.

وأقـترح إقـامة ندوة مـوسعـة، أو ملتقـى أدبى يلتقى فـيه النقـاد والمبدعون لوضع هذه النظرية؛ لأن المـبدعين لابد أن يكونوا قادرين على التعـبير عن الأسس التى تنبنى عليهـا هذه النظرية، وعندئذ سنكون أهلاً لتبنى فكرة الأدب الإسلامى.

الحواشى

١ ـ عباس حسن، الأصـول الفنية للأدب، ص٨، ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٤٩م.

٢ ـ عمرو بن بـحر الجاحظ، كتاب الحـيوان، جـ١ ص٧٥، ٧٦ ، ت عبد السلام محمد هارون، ط الحلبى مصر.

٣ ـ د. شوقى ضـيف، فصول فى الشعـر ونقده، ص٣١، ط دار المعارف ـ مصر.

٤ ـ د. محـمد غنيمى هلال، النقد الأدبى الحـديث، ص٤٨٣ وما بعدها، الطبعة الثالثة ١٩٦٤ ، ط دار الشعب ـ القاهرة.

٥ ـ د. محـمد غنيمي هلال، النقد الأدبى الحـديث، ص٤٩١ وما بعدها، الطبعة الثالثة، ١٩٦٤ ، ط دار الشعب ـ القاهرة.

٦ ـ د. نجـيب الكيلانـى، مدخل إلى الأدب الإسـلامى، ص٨٤، كتاب الأمة، مطابع الدوحة الحديثة، قطر ١٩٨٧م.

٧ ـ د. نجـيب الكيلانـى، مدخل إلى الأدب الإسـلامى، ص٨٤، كتاب الأمة، مطابع الدوحة الحديثة، قطر ١٩٨٧م.

٨ ـ الشـيخ أبو الحـسن الندوى، نظرات فى الأدب، ص١٠٥، ط دار البشير، عمان ١٩٩٠م.

٩ ـ ابن رشيق القيـروانى، العمدة، جـ١ ، ص٧٦، محمـد محيى الدين عبد الحميد، جـ١ ، مطبعة حجازى، القاهرة ١٩٣٤م.

١٠ ـ ابن سلام الجمحى: طبقـات فحول الشعراء، جـ١، ص٢٤، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى، القاهرة.

١١ ـ ابن سلام الجمحى: طبقـات فحول الشعراء، جـ١، ص٢٤، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى، القاهرة.

١٢ ـ ابن رشـيق القيـروانى: العمـدة فى محـاسن الشعـر وآدابه، جـ١، ص٨٠، المصدر السابق.

١٣ ـ أبو الفرج الأصبهانى: الأغانى جـ١١ ص٢١، ٢٢، ط وزارة الثـقافـة والإرشاد القـومى، المؤسسـة المصرية العـامة للتـأليف والترجمة والنشر، ووردت هذه القصة فى كتاب الشعر والشعراء وغيره.

١٤ ـ ابن رشيق القيروانى، العمدة، جـ١، ص١١٥، ١١٦ المصدر السابق.

١٥ ـ ابن سلام الجمحى: طبقـات فحول الشعراء، جـ١ ص١١٥، ١١٦، المصدر السابق.

١٦ ـ ابن هشام: الـسيرة النبـوية، جـ٣، ص٤٢، ٤٣ ط الحلبى، القاهرة.